دور تفسير القرآن في دفع الإلحاد، ورد شبهاته
دراسة تحليلية

الطيب سالم محمد بازينة
جامعة كارابوك. تركيا

استلمت الورقة بتاريخ 2025/12/15، وقبلت بتاريخ 2025/12/31، ونشرت بتاريخ 2025/12/31

الكلمات المفتاحية: التفسير. القرآن الكريم. الإلحاد. الشبهات.

الملخص

يهدف هذا البحث إلى بيان منهج القرآن الكريم في بيان مفهوم الإلحاد، سواء في المعنى اللغوي، أو المعنى الشرعي، ورأي المفسرين في معنى الإلحاد، وبيان الشبهات التي يثيرها الملحدون حول وجود إله والرد عليها؛ وقد أظهر البحث دور التفسير في توجيه المعنى القرآني لمحاربة الإلحاد بكل أنواعه، وذلك حلا لإشكالية الدراسة والمتمثلة في بروز دعوات خبيثة تجرف الناس بعيداً عن دينهم بوسائل جديدة، وأشكال حديثة، وبشبهات زائفة مضللة، تبهر الغافلين من العباد فتلبس عليهم الحق بالباطل، وتشوش عليهم فكرهم واعتقادهم في الله تعالى، مما يدفع بالبعض لكره الدين، وحب الإلحاد والسير في ركابه، فلزم الكتابة في هذا الموضوع .واتبعت في ذلك المنهج الوصفي الاستقرائي لتتبع وجمع الآيات الدالة الإلحاد في القرآن الكريم، والآراء التفسيرية التي كان له دور في محاربة الإلحاد، ثم المنهج الوصفي التحليلي لتحليل ما تم جمعه من معلومات واستخلاص دور المفسرين في الرد على الإلحاد، وذلك سداً للفجوة البحثية والمتمثلة في قلة الأبحاث التي تبرز دور التفسير في دفع شبهات الإلحاد، وقد توصل الباحث إلى عدد من النتائج منها :أن العقيدة الإسلامية الصحيحة هي الملاذ الآمن في الصراع الدائر بين الإلحاد والدين، وكذلك فإن السبب في اختلاف تعاريف الإلحاد إنما تعود إلى اختلاف عقيدة من يتصدى لتعريف الإلحاد .كما تبين أن الإلحاد متوجه نحو أصل العقيدة بوجود إله من الأساس، وليس نحو الإسلام خاصة.

taiyab@arts.lam.edu.ly

المقدمة

يشهد العالم المعاصر تصاعدًا ملحوظًا في الخطاب الإلحادي بمختلف صوره واتجاهاته، مدفوعًا بجملة من التحولات الفكرية والثقافية والعلمية، وبانتشار وسائل التواصل الحديثة التي يسّرت تداول الشبهات وبثّها في أوساط المجتمعات، ولا سيما بين فئة الشباب) قطب، .(2003) وقد مثّل هذا الواقع تحديًا حقيقيًا أمام الخطاب الديني، يستدعي إعادة النظر في أدوات المواجهة، وتجديد آليات البيان، والعودة إلى المنابع الأصيلة للفكر الإسلامي، وفي مقدمتها القرآن الكريم وتفسيره. ويُعدّ التفسير القرآني من أهم العلوم الشرعية التي تضطلع بمهمة بيان مراد الله تعالى، وكشف دلالات النص القرآني، وتوجيه معانيه بما يتلاءم مع الواقع دون إخلال بأصول الفهم وقواعد الاستنباط) الرازي، (2004) ومن هنا تبرز أهمية دور المفسرين في التصدي للشبهات الإلحادية، سواء تلك المتعلقة بوجود الله تعالى، أو بعدالة التشريع، أو بحكمة الابتلاء ووجود الشر والمعاناة في العالم) المراغي،.(1946)

وانطلاقًا من هذه الإشكالية، يسعى هذا البحث إلى إبراز دور تفسير القرآن الكريم في دفع الإلحاد والرد على شبهاته، من خلال تتبع الآيات ذات الصلة، وتحليل أقوال المفسرين قديمًا وحديثًا، وبيان مناهجهم في معالجة هذه القضايا العقدية الكبرى)القشيري، .(2007)كما يهدف البحث إلى سدّ فجوة علمية تتمثل في قلة الدراسات التي تُعنى بإبراز البعد التفسيري بوصفه أداة فاعلة في مواجهة الإلحاد المعاصر) طلعت،.(2018)

دور تفسير آيات القرآن في دفع الإلحاد، ورد الشبهات

للقرآن الكريم طريقتان في دفع الإلحاد، منها ما يكون قبل الوقوع فيه وقاية منه، ومنها ما يكون بعد الوقوع فيه علاجاً له تارة، ورداً عليه أخرى، ولا يمكن إغفال دور التفسير في بيان المراد من آيات القرآن فيما يتعلق بالإلحاد، إذ إن العديد من الآيات تتشابك معانيها، فيصعب فهمها، ومن هنا يأتي دور التفسير لبيان أوضح الآراء، وإزالة اللبس الذي قد يحصل عند عدم فهم الآيات، أو فهمها بشكل خاطئ، أو تعمد تفهيم الناس لها بشكل خاطئ من أجل تلبيس الباطل على الناس، ونشر فكرة الإلحاد؛ وفي هذا المبحث سيحاول الباحث العمل على إبراز دو التفسير في دفع الإلحاد ورد الشبهات من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول :دور تفسير آيات القرآن في دفع الإلحاد

للتفسير دور كبير في حماية الفرد والمجتمع على السواء من خطر الإلحاد، إذ إن رؤية المفسر تنبع أساساً من فهمه لآيات الله تعالى، وعلى قدر ارتباط المفسر للواقع وفهمه له يكون توجيهه للآيات، ومن المناهج التي يتبعها القرآن الكريم في دفع الإلحاد، أن يقوم بعمل تحصين لقلب وعقل الإنسان وبخاصة المسلم، بحيث لا يمكن زعزعة الفكر ولا القلب وفيما يأتي أهم الأمور التي وجه القرآن البشرية عموماً، والمسلم خاصة إليها لتجنب الوقوع في براثن الإلحاد:

الحث على طلب العلم وزيادة الثقافة الدينية :إن توفير بيئة تعليمية دينية قوية يمكن أن تساهم في تعزيز الوعي الديني والفهم الصحيح للعقيدة .فمن خلال التثقيف الديني، يمكن للأفراد أن يفهموا القيم والعقائد التي يؤمنون بها والإجابة عن الأسئلة والشكوك التي قد تنشأ في أذهانهم، ولذلك قال الله تعالى :﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾] الزمر[9 :، فمن يعلم لا يمكن استواؤه مع من لا يعلم، فمن علم أمن الوقوع في براثن الإلحاد وخطره، وأكثر ما يؤتى منه الفرد هو من قبيل عدم العلم، أو العلم الخاطئ، أو توجيه خاطئ لفهم آية ما، ومن هنا يقول مكي بن أبي طالب : "وقيل :الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم، والذين لا يعلمون هو من لا ينفع بعلمه، ومن لا علم عنده .ثم قال :﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾، أي :إنما يعتبر حجج الله فيتعظ بها."

والمتأمل في الآية يجد أن تذييل الآية بقوله تعالى :﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ إنما يلفت النظر إلى أن أصحاب الألباب فقط هم الذين يعلمون، وهم من يمكنهم أن يكونوا حصناً لغيرهم من الذين لا يعلمون، ناهيك عن أنفسهم.

ومن هنا فإن حث الإسلام على طلب العلم ليس فقط لمعرفة الله ورسوله ودينه وشرعه وأحكامه وحلاله وحرامه، بل أيضاً للتوقي من خطر الإلحاد، وقد سبق أن أشار البحث إلى أن أحد أهم الوسائل التي يسعى الملحدون ممن خلالها لبث سمومهم هو الجهل وعدم العلم.

يقول القشيري- صاحب اللطائف -رحمه الله" :أي هل يستويان؟ هذا في أعلى الفضائل وهذا في سوء الرذائل !﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ :العلم في وصف المخلوق على ضربين :مجلوب مكتسب للعبد، وموهوب من قبل الربّ .ويقال مصنوع وموضوع . ويقال علم برهان وعلم بيان، فالعلوم الدينية كلّها برهانية إلّا ما يحصل بشرط الإلهام."

أما شهيد الظلال فيوجه نظر القارئ إلى معنى دقيق في هذه الآية، فيقول رحمه الله" :فالعلم الحق هو المعرفة .هو إدراك الحق .هو تفتح البصيرة .هو الاتصال بالحقائق الثابتة في هذا الوجود .وليس العلم هو المعلومات المفردة المنقطعة التي تزحم الذهن، ولا تؤدي إلى حقائق الكون الكبرى، ولا تمتد وراء الظاهر المحسوس .وهذا هو الطريق إلى العلم الحقيقي والمعرفة المستنيرة- هذا هو -القنوت لله .وحساسية القلب، واستشعار الحذر من الآخرة، والتطلع إلى رحمة الله وفضله ومراقبة الله هذه المراقبة الواجفة الخاشعة ..هذا هو الطريق، ومن ثم يدرك اللب ويعرف، وينتفع بما يرى وما يسمع وما يجرب وينتهي إلى الحقائق الكبرى الثابتة من وراء المشاهدات والتجارب الصغيرة .فأما الذين يقفون عند حدود التجارب المفردة، والمشاهدات الظاهرة، فهم جامعو معلومات وليسوا بالعلماء، ﴿إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ وإنما يعرف أصحاب القلوب الواعية المتفتحة المدركة لما وراء الظواهر من حقائق .المنتفعة بما ترى وتعلم، التي تذكر الله في كل شيء تراه وتلمسه ولا تنساه، ولا تنسى يوم لقاه."

الحوار والجدال بالتي هي أحسن :إن خطورة الإلحاد ليست على الإسلام فحسب، فكما أسلف الباحث سابقاً فإن الإلحاد آفة سقيمة، إنما جاءت لضرب كل الشرائع السماوية ذات الاعتقاد بوجود إله، ولسنا هنا بصدد الحديث عن الباطل والحق منها، بل المقام لرد دعوى أخطر، وهي فكرة عدم وجود إله أصلاً.

ويرى الباحث أن أحد أهم الأسباب التي جعلت من الإلحاد مذهبا قويا واسع الانتشار في الوقت الراهن، هو التعامل الخاطئ بالفهم الخاطئ بين الملل المختلفة، ولهذا كان النبي ﷺ يحسن التعامل والتعايش مع يهود المدينة، ونصارى نجران ما داموا مسالمين، ومن هنا أمرنا الله تعالى بقوله :﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلمُوا مِنْهُم﴾] العنكبوت : [46]، يقول فيها المراغي" :أي ولا تجادلوا من أراد الاستبصار في الدين من اليهود والنصارى إلا باللين والرفق، وقابلوا الغضب بكظم الغيظ، والشغب بالنصح، والسَّوْرَة بالأناة... إلا من ظلموا منهم وحادوا عن وجه الحق، وعَمُوا عن واضح الحجة، وعاندوا وكابروا، ولم يجد فيهم الرفق، فمثل هؤلاء لا ينفع فيهم إلا الغلظة."

وفي قول الله تعالى :﴿وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾] النحل [125] : يقول المراغي أيضاً ما يؤكد نفس المعنى الذي ذكره الباحث من وجوب التحاور بالعقل، حتى لا يكون ذلك سببا في الهرب من كل العقائد السماوية، واللجوء إلى الإلحاد بوجود الخالق، فيقول رحمه الله" :فالحكمة يدعى بها العقلاء وأرباب الفكر والنظر، والموعظة يدعى بها العامة وذوو الأحلام الضعيفة، والجدل بالتي هي أحسن لمن هم في المرتبة الوسطى ... والحكماء ليس لديهم إلا طريقٌ واحدٌ في الدعوة إلى الحق والفضيلة، والمحور الذي تدور عليه هو حب العدل والإنصاف في الأفكار والأخلاق والآداب، سواء أكان الحكيم الذي يدعو ينتسب إلى دين أم لا، إذ هو إنما يبني دعوته على الإقناع من طريق العقل بحسب ما وصل إليه علمه، مع الإخلاص والصدق .فالإقدام على قتل مثل هؤلاء جناية على العقل، ومقت للعدل وكفى بذلك جرما وأَعْظِم به خسرا."

تلبية احتياجات الفرد الروحية :إن توفير بيئة دينية صحيحة تساهم في تلبية الاحتياجات الروحية للأفراد بما لا يتعارض مع النصوص الصريحة الصحيحة، تساعد بلا أدنى شك في حماية القلب من هجمات الإلحاد وضلالاته، فأحد أنواع الإلحاد التي انتشرت بين الناس ما يسمى باليوجا التأملية، أو الإلحاد التأملي، أو الإلحاد الروحي كما يسميه د .هيثم طلعت، فيقول : "قضية تطبيق الممارسات الهندوسية والبوذية والطاوية والوثنية بصورها المختلفة، تحت مسميات" العلاج بالطاقة " والاستفادة من" قانون الجذب "و"التأمل باليوجا"، وحمية" الماكروبيوتك "والتداوي ب"الريكي "والتناغم مع" الطاقة الكونية"، وغيرها من فلسفات الديانات الشرق آسيوية .قد يبحث الناس عن الإلحاد عندما يفتقرون إلى الدعم الروحي والتوجيه الديني في حياتهم."

وبالتالي فإن القرآن الكريم والمفسرين له، والحديث النبوي وشراحه لم يتركوا المجال الروحي فارغاً، بل إن القرآن الكريم مليئة جنباته بالغذاء الروحي، الذي يشبع القلب والروح على السوية، بل إن القرآن الكريم نفسه موصوف بأنه الشفاء، فقال تعالى واصفاً كتابه العزيز :﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاّ خَساراً﴾] الإسراء[82]:، ولقد أبدع سيد قطب حين تكلم عن هذا المعنى، بحيث لم يترك مجالاً للشك والإلحاد ليدخل قلب المؤمن، فيقول رحمه الله : "وفي القرآن شفاء، وفي القرآن رحمة، لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان، فأشرقت وتفتحت لتلقي ما في القرآن من روح، وطمأنينة وأمان .في القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة .فهو يصل القلب بالله، فيسكن ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن ويرضى فيستروح الرضى من الله والرضى عن الحياة، والقلق مرض، والحيرة نصب، والوسوسة داء .ومن ثم هو رحمة للمؤمنين ."

ومن هنا تتجلى فكرة الغذاء الروحي، فالإنسان مكون من جزئين :طين وروح، وغذاء الجانب الطيني من جهته، وكذا غذاء الجانب الروحي من جهته، فالروح تتلقى غذاءها من ربها، كيلا تبقى فريسة للملاحدة وأشباههم، فيعمل القرآن على طمأنينة القلب وسكينته، كما يعمل على صد ودفع القلق والحيرة والشك.

وهذا المعنى الذي ربى النبي ﷺ عليه أصحابَه الكرام، رباهم على معنى تزويد النفس بما تحتاج من الغذاء، وتزويد الروح بما يقويها، ويعينها في مواجهتها سبل الشك والحيرة، وهو ما دفع أكثر من واحد منهم ليدعو غيره للعبادة والتغذي الروحي بما شرعه لهم رسول الله، فهذا معاذ بن جبل يقول لصاحب له" :اجلس بنا نؤمن ساعة ."وقد أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه أن عبد الله بن رواحة كان يأخذ بيد النفر من أصحابه فيقول» :تعالَوا نؤمن ساعة؛ تعالَوا فلنذكرْ الله ونزدد إيمانا، تعالوا نذكره بطاعته لعله يذكرنا بمغفرته«، وبرواية أخرى لابن المبارك في نفس المعنى أن أبا الدرداء قال :كان ابن رواحة يأخذ بيدي ويقول» :تعال نؤمن ساعة، إن القلب أسرع تقلبا من القِدْرِ إذا استجمعت غليانا.«

غرس وتعزيز قيم الإسلام الأخلاقية :تمثل القيم الأخلاقية الإسلامية عاملاً مهما في منع انحراف الأفراد وانزلاقهم إلى الإلحاد .فإذا تم غرس وتعزيز القيم الإسلامية الأخلاقية مثل العدل والرحمة والإحسان والإنصاف، فبكل تأكيد سيساهم ذلك في بناء فرد قوي عقدياً وفكرياً، ومجتمعاً متماسكاً عصياً على الإلحاد وأشباهه.

فالإلحاد تقوم قواعده الأخلاقية- إن كان له أخلاق -على المعايير الذاتية وليست الموضوعية، غير إن هذه المعيارية الذاتية أنها نسبية لا مطلقة، وبالتالي فهناك مشكلة حقيقية قائمة، إذ إن الأحكام القيمية والقواعد الأخلاقية الإلحادية تتباين بتباين وجهات النظر، وكذا المجتمعات، فإن قواعدها الأخلاقية تختلف باختلاف الثقافة والعقيدة، والفكر، والبعد التاريخي، وبالتالي فإنّ المصير الوحيد للملحد الذي يقيم قواعده الأخلاقية على المعيارية الذاتية النسبية هو افتقاره إلى مرجعية نهائية ثابتة ومطلقة يمكن الرجوع إليها حال الاختلاف في وجهات النظر القيمية والأخلاقية.، ممّا يعني غياب أي قاعدة أصيلة تقوم عليها الأخلاق بالنسبة للملحد.

المطلب الثاني :دور تفسير آيات القرآن في رد شبهة الإلحاد حول وجودِ الله

بدايةً ليس المقام هنا هو سرد شبهات الملاحدة، وكيفية الرد، ولكن سيتناول الباحث طرفاً منها للتدليل على دور التفسير في رد الشبهات، ويمكن تناول هذا الجزء في نقطتين :أولاهما :ذكر شبهة واحدة- كنموذج -من شبهات الملاحدة، والثانية :رد المفسرين عليها، وبيان ذلك كالآتي:

أولاً :شبهة وجود الشر والمعاناة كنموذج من شبهات الملاحدة حول وجود الله تعالى :حيث يتساءل الملحدون كيف يمكن أن يكون هناك إله رحيم مع وجود الشر والمعاناة الكثيرة في العالم، مثل الأوبئة والكوارث الطبيعية والحروب وغير ذلك كثير.

ثانياً :رد المفسرين على الشبهة :رداً على شبهة الملاحدة والتي تقول إن وجود الشر والمعاناة دليل على عدم وجود إله رحيم، فإن المفسرين قد تتبعوا آيات القرآن التي ترد على هذه الشبهة، وعملوا على بيان معنى الآيات بما يدحض هذه الشبهات، فقد أكد المفسرون على مبدأ حرية الإرادة الإنسانية) وفيها أيضاً رد على فكرة أن الإنسان لا إرادة له، وأنه مسير في كل أمره، وبالتالي فلا يمكن حسابه(، فيؤكد السادة المفسرون على أن الله أعطى الإنسان حرية الاختيار، وهذا يشمل الحرية في اتخاذ القرارات الصائبة أو الخاطئة .وبالتالي فإن الشر والمعاناة يمكن أن تكون نتيجة لاختيارات الإنسان وأفعاله السلبية .أو أنها من قبيل الابتلاء والاختبار لحكمة إلهية لا يعلمها الإنسان وقت حدوث البلاء، وإنما يظهر له ذلك لاحقاً.

يقول الإمام القشيري في تفسير قول الله تعالى :﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ۝ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾] الروم-41]: [42، يقول" :وفساد البرّ بأكل الحرام وارتكاب المحظورات، وفساد البحر من الغفلة والأوصاف الذميمة مثل سوء العزم والحسد، والحقد، وإرادة الشّرّ، والفسق ..وغير ذلك .وعقد الإصرار على المخالفات من أعظم فساد القلب، كما أنّ العزم على الخيرات قبل فعلها من أعظم الخيرات .ومن جملة الفساد التأويلات بغير حقّ، والانحطاط إلى الرّخص في غير قيام بجد، والإغراق في الدعاوى من غير استحياء من الله تعالى .﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ :بعض الذي عملوا من سقوط تعظيم الشرع من القلب، وعدم التأسّف على ما فاته من الحقّ."

وتعليق القشيري- رحمه الله -على الآية يشمل المسلمين المترخصين المفرطين في أوامر الله تعالى، فكيف بهؤلاء الذين لا يؤمنون أصلا بوجود الله ؟ !ومن هنا يوجه القرآن نظر الكل- مؤمناً كان أم كافراً -إلى السعي في الأرض والنظر في عاقبة من كانوا على نفس حالكم من التفريط وعدم الإيمان بالله تعالى، وتوجيه الخطاب للكافة لأن العقاب والفساد الكوني إنما يعم الكافة أيضاً، فدعوة كل الفئات للنظر في الكون تناسبت مع ذلك المعنى.

وفي ذلك المعنى يقول السمرقندي" :ثمّ خوّفهم فقال عز وجل :﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ أي :سافروا فيها فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ يعني :كيف كان آخر أمر من كان قبلهم كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ فيعتبروا بذلك .والنظر على وجهين .يقال : نظر إليه إذا نظر بعينه، ونظر فيه إذا تفكر بقلبه."

أما الإمام الرازي فيأخذ الألباب والعقول بعيداً في تلك الآية بما يدحض هؤلاء الملاحدة، فيقول- رحمه الله " :-لما بين حالهم بظهور الفساد في أحوالهم بسبب فساد أقوالهم بين لهم هلاك أمثالهم وأشكالهم الذين كانت أفعالهم كأفعالهم، فقال :قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل أي قوم نوح وعاد وثمود، وهذا ترتيب في غاية الحسن وذلك لأنه في وقت الامتنان والإحسان قال :الله الذي خلقكم ثم رزقكم، أي آتاكم الوجود ثم البقاء ووقت الخذلان بالطغيان قال :ظهر الفساد في البر والبحر أي قلل رزقكَم، ثم قال تعالى :سيروا في الأرض أي هو أعدمكم كما أعدم مَن قبلَكم، فكأنه قال أعطاكم الوجود والبقاء، ويسلب منكم الوجود والبقاء، وأما سلب البقاء فبإظهار الفساد، وأما سلب الوجود فبالإهلاك، وعند الإعطاء قدم الوجود على البقاء، لأن الوجود أولا ثم البقاء، وعند السلب قدم البقاء، وهو الاستمرار ثم الوجود."

وهنا يأتي دور التفسير الحديث ليرد على الملاحدة المحتجين بهذه الشبهة الواهية، فيبرز الإمام المراغي من بين المفسرين المحْدَثين ليلجم الملاحدة حجراً فيقول" :أي ظهر الفساد في العالم بالحروب والغارات، والجيوش والطائرات، والسفن الحربية والغواصات، بما كسبت أيدى الناس من الظلم وكثره المطامع، وانتهاك الحرمات، وعدم مراقبة الأخلاق، وطرح الأديان وراء ظهورهم، ونسيان يوم الحساب، وأطلقت النفوسُ من عقالها، وعاثت في الأرض فسادا، إذ لا رقيب من وازع نفسي، ولا حسيب من دين يدفع عاديتَها، ويمنع أذاها، فأذاقهم الله جزاء بعض ما عملوا من المعاصي والآثام، لعلهم يرجعون عن غيهم، ويثوبون إلى رشدهم، ويتذكرون أن هناك يوما يحاسَب الناسُ فيه على أعمالهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فيخيّمُ العدلُ على المجتمع البشري، ويُشفِق القويّ على الضعيف، ويكون الناس سواسيةً في المرافق العامة."

المطلب الثالث :دور تفسير آيات القرآن في رد الشبهات حول التشريع :

كما تم في المطلب السابق، يمكن تناول هذا المطلب أيضاً في نقطتين :أولاهما :ذكر شبهة واحدة- كنموذج -من شبهات الملاحدة حول التشريع، والثانية :رد المفسرين عليها، وبيان ذلك كالتالي :

أولاً :شبهة قسوة التشريع، وعدم المنطقية، وتناقضها، كنموذج من شبهات الملاحدة حول التشريع :تهدف هذه الشبهات إلى التشكيك في صحة وعدل هذه الأحكام والتشريعات، وتطرح أسئلة حول الجوانب الأخلاقية والمنطقية للتشريعات الدينية .

ثانياً :رد المفسرين على الشبهة :في البداية يجب أن يتم التعامل مع الشرائع الدينية وفقًا للفهم الشامل والمتوازن، وعدم الانجرار إلى تفسيرات مجردة أو تجاوز السياق التاريخي والثقافي الذي قُدِّمت فيه هذه الشرائع .فقد تحمل الشرائع القوانين والأوامر التي تبدو قاسية لبعض الأفراد، ولكن الفهم الشامل يساعد في تحقيق المعنى الحقيقي والهدف النبيل لتلك الشرائع والقوانين.

تكمن المشكلة الأكبر في هذه الشبهة في كبر الملحد عن الإقرار بأن رباً أدرى وأوسع علما وإحاطة منه يشرع له ما فيه مصلحته، وقد وصف الله تعالى هؤلاء بالمستنكفين، فقال تعالى :﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً ۞ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾] النساء : [173-172]، فالآية الكريمة لخصت مشكلة الملحدين،) مستكبرون ومستنكفون (هذا هو التوصيف الرباني لهذه الفئة من الناس، إذن فأصل المسألة كبر واستنكاف، وإن كانت الآية تحدثت عن بني إسرائيل، إلا أن طبع الملاحدة واحد، فهم الذين كانوا مع نبي الله نوح من البداية، فقد وصفهم نوح شاكياً إلى حال هؤلاء بقوله :﴿وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً﴾] نوح[7]:، يقول سهل التستري- رحمه الله -في تفسيره عن هذه الآية " :قال :الإصرار على الذنب يورث الجهل، والجهل يورث التخطي في الباطل، والتخطي في الباطل يورث النفاق، والنفاق يورث الكفر."

يقول سيد قطب في مقدمة السورة" :هذه التجربة تكشف عن صورة من صور البشرية العنيدة، الضالة، الذاهبة وراء القيادات المضللة، المستكبرة عن الحق، المعرضة عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان، المعروضة أمامها في الأنفس والآفاق، المرقومة في كتاب الكون المفتوح، وكتاب النفس المكنون .وهي في الوقت ذاته تكشف عن صورة من صور الرحمة الإلهية تتجلى في رعاية الله لهذا الكائن الإنساني، وعنايته بأن يهتدي .تتجلى هذه العناية في إرسال الرسل تترى إلى هذه البشرية العنيدة الضالة الذاهبة وراء القيادات المضللة المستكبرة عن الحق والهدى ."

هذا هو دور المفسر الذي يتحدث عنه هذا المبحث، فكلام شهيد الظلال- رحمه الله -أوضح دليل على هذا، حيث يبين بوضوح شديد أصل مشكلة الملحدين مع التشريع، فليست مشكلتهم أن التشريع قاس أو غير ذلك، بل إن مشكلتهم الكبرى في استكبار نفوسهم !ومع ذلك فإن كلام سيد قطب يدحض فكرة قسوة التشريع، حيث بين أن الله تعالى رحيم بعبده، حريص على هدايته، إذ أرسل له أفضل خلقه ليرشدوه، ويأخذوا بيده إلى خالقه.

ويريد الملاحدة من خلال شبهتهم حول التشريع القول بأن هذه التشريعات لا تصلح في زماننا هذا على الأقل، وإن كانت لا تصلح عموما للإنسان، والأصل أن الإنسان يشرع لنفسه فهو أدرى بنفسه، وفي الرد على هذه الفكرة وجَّه المفسرون دفة الحوار نحو قصور فهم وإدراك البشر مهما بلغوا من علم أو تكنولوجيا، فهم إن وضعوا معايير وتشريعات فلن تلبي حاجات الكل في نفس الوقت، والتاريخ شاهد على تشريعات الرأسمالية والشيوعية وغيرهما، حيث لم تصب إلا في مصلحة البعض، وأهملت الغالبية العظمى من البشر، فالإيمان بوجود إله مشرع وعالم وقادر، والاعتقاد بأنه لا يقدم إلا كل خير لخلقه، بما يسعدهم، - كما يفعل صاحب كل مصلحة في حياة الملاحدة الدنيوية) ولله المثل الأعلى -(هذا الاعتقاد وهذا الإيمان هما الطريق الأوحد لارتقاء البشرية.

يقول سيد قطب "وما يمكن أن ترتقي البشرية ولا أن ترتفع عن طريق فلسفة أو علم أو فن أو مذهب من المذاهب أو نظام، إلى المستوي الذي وصلت أو تصل إليه عن طريق استقرار حقيقة الإيمان بالله في نفوس الناس وحياتهم وأخلاقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم .وهذه الحقيقة ينبثق منها منهج حياة كامل، سواء جاءت مجملة كما هي في الرسالات الأولى، أو مفصلة شاملة دقيقة كما هي في الرسالة الأخيرة ."

ويعمل المفسرون على دحض هذه الشبهة الواهية من خلال تتبع التاريخ، فكلما سارت البشرية على التشريع الإلهي ورضيته نهجاً لها كانت في أعلى درجات الرقي الحضاري والنفسي، وعلى النقيض، فكلما ابتعدت وتنكبت عن تشريع خالقها لم ينلها إلا الخسران والهلاك، وانحطاط البشرية إلى أسفل سافلين، وضربتها كل أنواع الأمراض النفسية والمجتمعية، وأكثر دليل على ذلك، قصة أهل سبأ .

وكمثال واضح على دور المفسرين في دحض هذه الشبهة من هذا الجانب، نرى سيد قطب يقول" :والدليل القاطع على أن هذه العقيدة حقيقة من عند الله هو هذا الذي أثبته الواقع التاريخي من بلوغ البشرية باستقرار حقيقة الإيمان في حياتها ما لم تبلغه قط بوسيلة أخرى من صنع البشر :لا علم، ولا فلسفة، ولا فن، ولا نظام من النظم .وأنها حين فقدت قيادة المؤمنين الحقيقيين لم ينفعها شيء من ذلك كله، بل انحدرت قيمها وموازينها وإنسانيتها، كما غرقت في الشقاء النفسي والحيرة الفكرية والأمراض العصبية، على الرغم من تقدمها الحضاري في سائر الميادين، وعلى الرغم من توافر عوامل الراحة البدنية والمتاع العقلي، وأسباب السعادة المادية بجملتها .ولكنها لم تنل السعادة والطمأنينة والراحة الإنسانية أبدا .ولم يرتفع تصورها للحياة قط كما ارتفع في ظل الحقيقة الإيمانية، ولم تتوثق صلتها بالوجود قط كما توثقت في ظل هذه العقيدة، ولم تشعر بكرامة» النفس الإنسانية «قط كما شعرت بها في تلك الفترة التي استقرت فيها تلك الحقيقة .والدراسة الواعية للتصور الإسلامي لغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني تنتهي حتما إلى هذه النتيجة"

أما في مسألة قسوة التشريعات فإن الله تعالى لم يرد بعباده إلا كل يسر ورحمة وتسهيل في أداء العبادات، وسير العملية الحياتية، فالله تعالى يقول :﴿وَمَنْ كانَ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى مَا هَداكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾] البقرة[185]:، يقول الشعراوي رحمه الله تعالى" :ونريد أن نفهم النص بعقلية من يستقبل الكلام من إله حكيم، إن قول الله :﴿يُرِيدُ الله بِكُمُ اليسر وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ العسر﴾، تعقيب على ماذا؟ تعقيب على أنه أعفى المريض وأعفى المسافر من الصيام، فكأن الله يريد بكم اليسر، فكأنك لو خالفت ذلك لأردت الله معسراً لا ميسراً والله لا يمكن أن يكون كذلك، بل أنت الذي تكون معسراً على نفسك ."

هنا يبرز دور المفسر الذي يوجه نظر القارئ نحو درء شبهة أن التشريعات قاسية، وهذا عينه ما أراد الباحث أن يظهره من خلال هذا المبحث، أن المفسر قادر على رد شبهات الإلحاد من خلال التفسير.

وللشعراوي رد بديع على هذه الشبهة من جذورها حين تناول مسألة قطع يد السارق في سورة المائدة، في قول الله تعالى : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾] المائدة[38]:، فقال" :وإن ظل التشريع على الورق دون تطبيق فلن يرتدع أحد .والذين قالوا) قطع الأيدي فعل وحشي(، نقول لهم :إن يداً واحدة قطعت في السعودية فامتنعت كل سرقة .وإذا كان القتل أنفى للقتل؛ فالقطع أنفى للقطع، أما عن مسألة التشويه التي يطنطنون بها فحادثة سيارة واحدة تشوه عدداً من الناس وكذلك حادثة انفجار لأنبوبة» بوتاجاز «تفعل أكثر من ذلك .فلا تنظروا إلى القصاص مفصولا عن السرقة إن انتشرت في المجتمع ."بل وأزيد على كلام الشعراوي، كيف بالحروب التي يصنعها البشر؟ ودول الملاحدة في المقدمة منها، حروب عادية، ونووية، وفيروسية، والحرب الدائرة الآن بين روسيا وأوكرانيا خير دليل، بل وما فعله الأمريكان في العراق وأفغانستان من قبل، وما يفعله الكيان الصهيوني في فلسطين، وما قامت به فرنسا في الجزائر، وما تقوم به في أفريقيا، لماذا لم تصفوا كل هذه الحروب بأنها تشوه الأجساد؟ !والحقيقة أن المقارنة باطلة وهزلية.

هذه هي النظرة الفاحصة التي من خلالها يوجه المفسر الأنظار إلى وهن شبهات الملاحدة أياً كانت، وخاصة تلك التي تحدثوا بها حول التشريع.

رأي الباحث:

في ختام هذا الفصل يرى الباحث أن للمفسر دور كبير في توجيه المعنى التفسيري للرد على شبهات المبطلين الملاحدة على اختلاف أنواعهم وأوطانهم، بل وعقائدهم، أياً كان نوع الشبهة، سواء كانت الشبهات نحو وجود الإله ذاته) إلحاد كلي(، أو للطعن في التشريع) إلحاد جزئي(، وهنا تبرز أهمية دور المفسر.

ويجب التنبيه على أن هذا الفصل لم يكن لسرد الشبهات، بل كان لبيان دور المفسر في ردها، من خلال نظرته الفاحصة للواقع حوله، وتوجيه المعنى التفسيري نحو ذلك، بما لا يخالف أصول التفسير .وقد أدلى مفسرو كل عصر في هذا المجال بما يتناسب مع واقعهم المعاش.

الخاتمة

في ختام هذا البحث يتبين أن التوحيد مغروس في فطرة الناس، مجبول عليه الخلق، ذلك أن الله عز وجل قد وضعه في قلوب عباده وفطرتهم حين خلقهم، غير أن كثيراً من الخلق قد حاولوا تغيير هذه الفطرة، وهذا ما سمي لاحقا بالإلحاد، ويمكن القول أن الإلحاد منه ما هو كلي ومنه ما هو جزئي، وبالتالي يجب التعامل مع نوع الإلحاد حسب كل حالة، وفي هذه الخاتمة يجب على كل من يتصدى للدعوة إلى التوحيد ورد شبهات الملحدين أن يكون متسلحا بالعلم، ومتجهزاً بما يمكنه من مواجهة هذا الداء، وقد توصل الباحث إلى عدد من الاستنتاجات وبيانها كالتالي:

الاستنتاجات

قد توصل الباحث إلى عدد من الاستنتاجات، وهي كالتالي:

المعنى العام للإلحاد هو الميل والاعوجاج، وهو الرابط الأهم بين التعاريف كلها.

إن توجيه العقل السليم والنظر السديد في الكون دليل على رجحان هذا العقل.

القرآن الكريم تعامل مع العقل والفطرة معاملة احترام وتقدير، ليس كما يزعم الملاحدة، وبالتالي يمكن الوصول إلى الله عز وجل من خلال الفطرة السليمة.

السبب في اختلاف تعاريف الإلحاد إنما تعود إلى اختلاف عقيدة من يتصدى لتعريف الإلحاد .

إن الإلحاد ليس موجهاً نحو الإسلام فقط، بل هو متوجه نحو أصل العقيدة بوجود إله من الأساس.

الواجب على كل من يتصدى لمواجهة فكرة الإلحاد أن يتحلى بالعلم، والمعرفة الصحيحة لأصل المشكلة، وإلا سيدخل مدخلا يضيع فيه، وسينتصر فيه الإلحاد على الاعتقاد بوجود إله.

للإلحاد أسباب جعلت البشرية تقع فريسة له، ومن ثَمّ تَلَقَّفَ بعضُ مرضى العقول والقلوب ذلك الداء، وعملوا على نشره بكل شراسة كما تبين سابقاً.

إن التعامل الخاطئ مع العلم من قِبل رجال الكنيسة كان له مردود سَلبي جداً، مما دفع أغلب العلماء للكفر بفكرة الدين من الأساس، ووضع الدين في مواجهة العلم، وفي ذلك مغالطة كبيرة.

شراسة الفكر الإلحادي الحديث، مقارنة بالفكر القديم، كما اعتمد الإلحاد الحديث على جهل الناس، وترميز علماء الإلحاد على الساحات العالمية في كافة التخصصات، وإغداق الجوائز والألقاب عليهم، مما يغري الشباب لحذو طريقتهم.

إن الإلحاد لا يهتم لا بطفل ولا امرأة كما يزعمون، بل إن الملاحدة في كل عصر يستخدمون كل الطرق- الشريفة والقذرة - للوصول إلى أهدافهم.

للمفسر دور كبير في توجيه المعنى التفسيري للرد على شبهات المبطلين الملاحدة على اختلاف أنواعهم وأوطانهم، بل وعقائدهم، أياً كان نوع الشبهة، سواء كانت الشبهات نحو وجود الإله ذاته) إلحاد كلي(، أو للطعن في التشريع) إلحاد جزئي(، وهنا تبرز أهمية دور المفسر.

التوصيات

بعد عرض الاستنتاجات يوصي الباحث بما يأتي:

يوصي الباحث كليات الدعوة الإسلامية بعمل برنامج عملي تطبيقي لتدريب الدعاة على يد مختصين في فن الإلقاء والخطابة.

يوصي الباحث القائمين على شؤون الجامعات المهتمة بإنشاء مراكز علمية متخصصة في كليات العلوم الإسلامية والشريعة على مستوى العالم لدراسة فن المحاورة.

يوصي الباحث بعمل مؤتمرات علمية نوعية لدراسة أسباب انتشار الإلحاد، وخاصة بعد ما يسمى بالربيع العربي، ووضع خطط لمواجهة ذلك.

يوصي الباحث القادرين من طلاب البحث العلمي، أو مراكز البحث المهتمة بعمل إحصائيات دورية لتحديث بيانات ونسب الإلحاد في الدول الإسلامية، ومن ثم استخدام ذلك في مواجهة الإلحاد.

المراجع

- **القرآن الكريم.**
- **الرازي، فخر الدين .(2004) .مفاتيح الغيب) التفسير الكبير .(بيروت :دار إحياء التراث العربي.**
- **المراغي، أحمد مصطفى .(1946) .تفسير المراغي .القاهرة :مطبعة مصطفى البابي الحلبي.**
- **القشيري، عبد الكريم بن هوازن .(2007) .لطائف الإشارات .بيروت :دار الكتب العلمية.**
- **قطب، سيد .(2003) .في ظلال القرآن .القاهرة :دار الشروق.**
- **طلعت، هيثم .(2018) .الإلحاد الروحي .القاهرة :دار أجيال.**